التحرر من السيطرة الكهنوتية

(صورة رجال الدين في الأدب العربي الحديث)

بيير كاكيا

obeikandl.com

في ١٩٧١، قمت والدكتور مصطفى بدوي بنشر مقالتين مستقلتين وإن كانتا متكاملتين عن التيمات الدينية في الأدب العربي الحديث[١]. ومما يثلج الصدر في إطار ما يُقصد أن يكون تكريمًا للدكتور بدوي في نهاية عمله رسميًا بالتدريس، اعتبار هاتين المقالتين أساسًا لاستكشاف أبعد لمنطقة عاينها بنفسه .

كانت ملاحظاتنا في هاتين المقالتين تتدرج في الصورة التي يتقبلها المثقفون العرب المعاصرون باعتبارهم ملتزمين أساسًا بالقيم الإنسانية العالمية لا بالمعتقدات المذهبية التقليدية. وفي قلب هذه الصورة نجد الدكتور بدوي يظهر على نحو ينم عن مقدرة أن صورة النبي قد انتقلت تدريجيًا من التأكيد على رسالته الإلهية إلى تأكيد صفاته كنموذج وقائد بشري مثالي وإلى تأكيد دوره كمصير لقيم أثيرة عند المثقف العربي الحديث.

وقد وصل الأمر إلى ذروته في كتاب عبد الرحمن الشرقاوي (١٩٢٠- ١٩٨٧) "محمد رسول الحرية" (١٩٦٢) .احتفل الشرقاوي في الحقيقة بعدد من الأبطال الآخرين في بواكير الإسلام باعتبارهم يناصرون قيمًا ذات مغزى في المجتمعات الحديثة.

ولو أخذنا مثالاً واحدًا فليكن مسرحيته الشعرية "ثأر الله: الحسين شهيدا"[٢]، وهي عن استشهاد حفيد النبي في كربلاء. فلا شيء يمكن أن يخطئه أشد عقول المسلمين تقليدية، لأن الحسين موصوف بكامل الفضائل مشتمل على جدارة حربية ، ومن العار الذي أثقل معذبيه تقصيرهم في أداء الاحترام الواجب لأهل بيت النبي، مما تضمن اكثر من

(١) هما "الإسلام في الأدب العربي الحديث" للدكتور بدوي، و"التجليات المتعلقة بالمسيحية واليهودية في الرواية والدراما المصرية الحديثة" لبيير كاكيا، (١٩٧١)، مجلة الأدب العربي.

(٢) القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩.

إيحاء أن الصفات تتوارث، كما كانت السيدة زينب تُعيّر يزيدًا : (ص١٦٧).

" لكن متى تُرجى العدالة منكَ أنتَ وقد نبتَّ من الخطايا

ونشأتَ في حِجر الضراوة، حِجر آكلة الكبد؟ "

وخلال المسرحية كلها يتم التأكيد على دور الحسين كبطل ونصير للفقراء الذين عشقوه لكن عجزوا عن معونته (ص٣٤) ضد مَن "قد يشتري التاريخَ" (ص٦٦) ، ويصرّ الحسين على أنه لم يُمنح معرفة ليست جائزة للكل (ص٥٠) ومناجاته الأخيرة هكذا (ص١٨٧-١٨٨) :

فلتذكروني

...

وإذا اختفى نغم الإخاء

وإذا شكا الفقراء واكتظت جيوب الأغنياء

...

وحين يستخزي العليم

وعندما يهن الحكيم

وإذا تبقى فوق مائدة امرئٍ ما لا يريد من الطعام

وإذا اللسان أذاع ما يأبى الضمير من الكلام

فلتذكروني

فلتذكروني إن رأيتم حاكميكم يكذبون

ويغدرون ويفتكون

والأقوياء ينافقون

والقائمين على مصالحكم يهابون القويّ

ولا يراعون الضعيفْ"

ومع ذلك، مهما كانت هذه النصوص مفيدة في تأكيدها على أولويات حديثة (لم تكن سائدة في ذلك العصر) ، ورغم أن الإسلام القويم صريح في تأكيد أن النبي بذاته لم يكن إلا بشرًا، فلعله مما يمكن أن تقوم عليه

الحجة، أن وجهة النظر التي نرى بها هذه الشخصيات التاريخية الرئيسية (ويرى البعض على الأقل أن الله قد وهبها السلطان) ليست دليلاً مؤكدًا على دور رجل الدين في المجتمع كما يقبله المثقفون العرب اليوم. واستهدافًا لهذه الغاية، فالطريق الأحوط والأوثق هو أن ننظر في الصورة التي وصف بها أولئك الذين يقومون بدور دينيّ أهون شأنًا.

كنت قد أشرتُ في مقالتي السابقة إلى مسرحية "الراهب"[1] للويس عوض (١٩١٥ - ١٩٩١) التي تجعل شخصية مغمورة في القرن الثالث "أبانوفر" لسان حال الوطنية المصرية، إذ يتمرد على محاولة البطريرك منع الزواج بين المسيحيين والوثنيين، مصرحًا بدلاً من ذلك أن الولاء المشترك لمصر هو المؤهل الأسمى لدخول "الملكوت".

ولكننا إذ نتناول شخصيات مسلمة، نصادف صعوبة في أن الإسلام ليس به كهنوت. مَن نعتبره إذن "رجل الدين" في مقابل رجل الكهنوت المسيحي؟ من الممكن أن نرشح لهذا الدور كل مَن تعتمد مهنهم أو مكانتهم الاجتماعية على كفاءة في معرفة علوم الدين التقليدية: من بينهم يمكن احتساب المعلمين بمدارس تحفيظ القرآن، والقضاة والمحامين بساحات القضاء الشرعي، وإن كانت وظائفهم المميزة تكفي للحكم بإبعادهم عن هذا الترشيح.

وممن ينطبق عليهم ذلك بشكل أوفى: وعاظ المساجد المستديمون ، ومرشدو الطرق الصوفية، وكذلك في سياق القص الأدبي، تلك الشخصيات الممنوحة لقب الشيخ أو الحاج، أو الذين يصوَّرون باعتبارهم ممن يلقى الاحترام والتوقير بفضل علمهم بالدين، وإن لم تُحدّد وظائفهم أو علمهم.

في الماضي نجد صورة جميلة تندرج تحت هذه المقولات، الحلاج الصوفيّ المقتول بوحشية، لخروجه عن التعاليم الدينية "القويمة". وقد

---

(١) القاهرة، ١٩٦١

جعله صلاح عبد الصبور (١٩٣١ - ١٩٨١) بطلاً لمسرحية شعرية[١]. لكنه يحتفل بالحلاج هنا باعتباره بطل الفقراء، خصم المؤسسة وضحيتها. والبطل هنا ليس من ينطق بلسان التصور الشعبي للنموذج الصوفي باعتباره الذي يُعرض عن العالم وشروره، ويسعى إلى النعيم بالاتصال بالله، بل يعبّر عن ذلك التصور مريده الشبلي الذي لم يصل إلى مرحلة النضج (ص١٥ ـ ٤٢، ١٧ ـ ٤٧) لكنه يعود للأرض بهذه المقايضة الأساسية (ص٣٤ ـ ٣٥):

"الشبلي: إني أخشى أن أهبط للناس
قد أبعثُط أجفاني فوق الدنيا.

...

ويموت النور بقلبي.
الحلاج: هَبنا جانينا الدنيا
ما نصنع عندئذ بالشر؟
الشبلي: الشر
ماذا تعني بالشر؟
الحلاج: فقر الفقراء
جوع الجوعى
في أعينهم تتوهّج ألفاظٌ لا أوقن معناها"

يظهر الحلاج في النهاية حقيقة أنه يتخلى عن جُبّة الصوفي، وقال تابعه المتعلق به غير المسمى (ص٢٥ـ٧٠) :

"وهل تمنعنا الخرقة أن نأبه للظلم؟
وأن نثبُت للظالم؟
وأن ندفع كيد الشر عن أحبابنا الضعفاء؟

(١) المسرحية هي "مأساة الحلاج"، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٥. ترجمها خليل سمعان بعنوان "جريمة قتل في بغداد"، ليدن، ١٩٧٢. والأرقام بالاستشهادات للصفحات العربية تليها للترجمة الإنجليزية.

أما أبصرت بعض السالكين تنعّموا بالثوب
وحين استشرفوا للزهد، وانخلعوا عن اللذة
تشهّوا لذة أخيث من كل اللذاذات
تشهّوا لذة الإنكار للآلام والبشر
وأن يمشوا خفاف الخطو مطويين فوق النفس
وحين تحدثوا استخفوا ورا الخرقة"

وليس سرًا كذلك أن جمال الغيطاني (١٩٤٥ -) يُسقط في "الزيني بركـات"[١] على العصر المملوكي مشكلات السلطة التي أحس بها هو نفسه إحساسًا حارًا مع معاصريه . فالأزهري الشيخ أبو السعود، رغم أنه ليس بطل الرواية، يتخذ دورًا جديرًا بالتشريف كخصم للظلم .

هذه القلة من الأعمال الأدبية هي الوحيدة المعروفة لي والجديرة بالملاحظة والتي تهب رجال الدين مكانة كريمة في وضع تاريخي، بينما صور نظائرها الأقل في المجتمع المعاصر وفيرة لكنها تتخذ طبيعة مختلفة.

فقد ظهر الامتعاض من مساوئ السلطة اللاهوتية مبكرًا بين كتّاب العرب المسيحيين الحديثين. تأثر فارس الشدياق (١٨٠٤- ١٨٧٨) (بعد إسلامه تحول إلى أحمد الشدياق) "باستشهاد" أخيه سعد ، وكان في خدمة بطرس كرم مطران بيروت، فكتب تفنيدًا لحجج المطران ضد البروتستانتية، ونتيجة ذلك تم احتجازه بأمر البطريرك يوسف حُبيش، ومات في أثناء حبسه[٢] .ويُعتقد أن حكايته هي التي ألهمت جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) "يوحنا المجنون" [٣].

وهناك إدانة للاهوتية ولدورها الاجتماعي بوضوح أشد في رواية

---

(١) الطبعة الثالثة، القاهرة، دار المستقبل العربي، ١٩٨٥. ترجمها للفرنسية جان فرنسوا فوركاد،باريس، سوي،١٩٨٥.ومترجمها للإنجليزية مصطفى فاروق عبد الوهاب، لندن، ١٩٨٨ .

(٢) انظر، مارون عبود "صقر لبنان"، بيروت، دار الكشاف، ١٩٥٠.

(٣) في "عرائس المروج"، بيروت، دار الأندلس.

جبران نفسه المكتوبة عند بداية القرن تحت عنوان "خليل الكافر"[1]، تحكي عن يتيم أودع في دير عُهد إليه بعمل وضيع ولم يُعط إلا الحد الأدنى من الطعام والمأوى. حين كبر أدرك إسراف الرهبان في توفير الراحة لأنفسهم على حساب الفقراء، لكن تأنيبه لهم جلب عليه الجَلد وسيق إلى سجن انفرادي .

غير أنه شهد على معذبيه دون ندم بآية من إنجيل مرقس (٢٢:٢٣) شبّه فيها الكتبة والفرّيسيين بالأفاعي، ومن ثم طردوه بقلب شتاء قارس. فوجد سكنًا مع امرأة طيبة، لكن القسّ المحلي أبلغ عنه صاحب الأرض الذي يفرض حكمًا مستبدًا على جماعته. تم استدعاؤه في محاكمة علنيـــة، لكنه هو الذي يُدين الحلف القـائم على النهب والسلب بين اللاهوتيين والإقطاعيين، في عبارات مدوية تحمل القرويين على رفض طاعتهم بعد ذلك. اكتشفوا كيف يعيشون حياة ريفية مثالية، وتجاهلوا القسّ، أما صاحب الأرض فقد أحبط، سقط مريضًا ومات .

من الجدير بالملاحظة أن جزءًا من نقد جبران اللاذع للرهبان ورجال الدين نابع من أنهم ارتدوا عن التعاليم الصحيحة للمسيحية.

وفي ذلك تواز بشكل عام مع الإصلاح الإسلامي الذي يتمثّل في "السلفية" التي تُنحي باللائمة على من يخلطون الخطأ بالإيمان القويم، والممارسات التي تنطوي على الركود والقعود عن العمل خاصة في الطرق الصوفية باعتبارها سبب فضل الشعوب الإسلامية في مجابهة تحديات الحياة الحديثة. وتردد صدى هذا في قصيدة المغربي "عبد الكريم صكيرج" التي يلعب فيها على مقولة "في الزوايا خبايا"، مستفيدًا بكلمة "الزاوية" التي تُطلق أيضًا على صومعة الصوفي[2].

---

(١) انظر، تريفو لوجاسيك "شعر العرب ونثرهم، الحث والانعكاس للوحدة والتقدم"، الشرق الأوسط، ١٩٦٩، والنص من "الأرواح المتمردة"، دار كرم، دمشق.

(٢) سعد ميخائيل "آداب العصر في شعراء الشام والعراق ومصر"، القاهرة، مطبعة العمران، بدون تاريخ، الجزء الثاني، ص ٩١.

والواقع أنه على يدي كاتب مبكر آخر للقصة القصيرة، محمود طاهر لاشين (١٨٩٤ - ١٩٥٤)، لا نجد رجل الدين المسلم بأحسن حالاً مما استهدفه جبران خليل جبران المسيحي بسخطه الحانق. ففي قصة بعنوان "ميستوفليس"[١]، وهي ليست شديدة الرهافة والدقة لكنها تصدم بعنوانها، يصف رجلاً يتحلى بمجموعة من الألقاب الطنانة، له شهرة القداسة والعلم معًا، لذا يأتي إليه البسطاء متلمسين بركته، وشفاعته، ومأثوراته الحاسمة.

يظهر الرجل على قدر كبير من الورع، ويتأكد أولاً أن الجيرة كلها تسمعه إذ يعلن نيته على ألا يكتفي بالفريضة من الصلوات بل يؤدي ركعات نوافلها أيضًا. وعندما يستشيره القرويون في مسألة ملكية يخرج دائما بنصيب سخي، والبركة التي يمنحها لامرأة شابة ساقطة تستلزم وضع الأيدي على أكثر من تاج رأسها.

ليست الصور الأحدث عن رجال الدين أقل مدعاة للاستهجان لكنها لا تضرب بجذورها كثيرًا في السخط الأخلاقي بل في العقيدة الاجتماعية السياسية. وليس هناك أوضح تسجيلاً لذلك من "فلاح" الشرقاوي[٢]، حيث يمثل الشيخ طلبة الرجعي في نظرته للنساء أداة في يد الملاّك الأثرياء وراعيًا للإذعان للسلطة، حتى يُطرد ويتم استبداله بعبد المقصود، عضو الاتحاد الاشتراكي العربي.

في واحدة من مسرحيات نجيب سرور (١٩٢٢ - ١٩٧٨) المؤسسة على الحكي الشعبي "ياسين وبهية"[٣]، نجد أساسًا آخر لسلطة رجل الدين. فهو يفنّد على نحو خاطف في نقاش بين الفلاحين جذور حالتهم البائسة. ويتنوع حواره بين الأخذ والرد (ص ١٩) :

"- اسألوا الشيخ اسماعين .

(١) في "سخرية الناي"، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤ .
(٢) تونس، مؤسسة بن عبد الله، ١٩٧٥ .
(٣) في سلسلة المسرح، نشرتها مجلة المسرح، العدد ٥، يوليو ١٩٦٥.

- والله ما يعرف.. دا زي البغبغان .

- حافظ القرآن .

- وإيه يعني ؟! أسطوانة!"

يمكن للسخرية بالطبع أن تكون سلاحًا أكثر فعالية من السخط الحار. وقد ذكرتُ في مقالتي السابقة قصة قصيرة لتوفيق الحكيم (١٨٩٨ - ١٩٨٧) بعنوان "معجزات"[١] نجد فيها راهبًا مسيحيًا يتخيل أنه يملك قدرات خارقة، فيحتفي به أهل القرية الماكرون إذ يصورون له أنه قام بشفاء بعد آخر، ويطالبون في الوقت نفسه بفدية من الدير مقابل عودته سالمًا.

ربما لم يُقصد بذلك غير مزحة يمليها حسن النية. ولكن قصة قصيرة أخرى ليوسف إدريس (١٩٢٧ - ١٩٩١) ليست أبدًا من هذا القبيل. فهنا إمام يقود الصلاة في جامع ولا يمكنه غلق عينيه عن امرأة نصف عارية، نصف أوربية، في حجرة نومها عبر الشارع، ويهجر جماعة المصلين وهم ساجدون. والقصة بعنوان "أكان لابد يا لي لي أن تضيئي النور؟"[٢].

يتم تصوير الإمام واقعيًا هنا على أنه انساق وراء غواية حورية نصف غربية، والمغزى العام لعمل يوسف إدريس لا يقترح موضع السخرية خصوصًا في رجل الدين بل كل الزعامات العربية التي أناخت تحت ثقل نقد راسخ بعد هزيمة ١٩٦٧ ولعل الحوافز نفسها والغرض نفسه هما ما ألهما نزار قباني (١٩٢٣ - ١٩٩٩) بقصيدته الحماسية "استجواب"[٣] التي يشكك فيها من رجل قتل الإمام ، فيعترف أخيرًا :

"يا سادتي

---

(١) في "أرني الله"، القاهرة، ١٩٥٣. ترجمت بعنوان "معجزات للبيع" في كتاب دينيس جونسون ديفيز "قصص قصيرة عربية حديثة"، ١٩٦٧.

(٢) في "بيت من لحم"، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧١.

(٣) في "الممثون، الاستجواب"، بيروت، ١٩٧٠.

بخنجري هذا الذي ترونه
طعنته
في الصدر والرقبة
طعنته
في عقله المنخور مثل الخشبة
طعنته باسمي أنا
واسم الملايين من الأغنام
...
قتلتُ إذ قتلته
كل الصراصير التي تُنشد في الظلام
والمستريحين على أرصفة الأحلام
قتلتُ إذ قتلته
كل الطفيليات في حديقة الإسلام
كل الذين يطلبون الرزق
من دكانة الإسلام .
قتلتُ إذ قتلته .
يا سادتي الكرام! .
كل الذين منذ ألف عام
يزنون بالكلام"

لكن الأدب العربي الحديث لا يفتقر إلى موقف أكثر وداعة وإن كان ذلك الموقف لا يظهر أساسًا إلا بالنسبة لدور شيوخ الصوفية في البيئة الريفية. فتأتي أكثر تعبيرات الإدانة وضوحًا، وإن لم تعوزها تحفظات معينة،من يحيى حقي (١٩٠٥ - ١٩٩٠)(*) إذ قضى عامين في بواكير حياته المهنية معاون إدارة بصعيد مصر، وبعد ملاحظته أن الفلاحين هم

(*) توفي الروائي الكبير يحيى حقي أواخر ١٩٩٢، لا كما ذكر عام ١٩٩٠ (م) .

obeikandl.com

الفرائس السهلة للدجالين، يكتب[1]:

"يحمي الفلاح من هؤلاء الدجالين ويُشفيه من أضغانه وأحقاده وإضماره الثأر رجال طوافون يُشتَهرون عنده بالصلاح والتقوى والولاية ..

مرّ عليّ بالصعيد نفر غير قليل من هؤلاء الملوك غير المتوجين .

لا حدّ لسلطانهم على رعاياهم، لهم جولات موسمية ينتقلون فيها من عشيرة لأخرى. فما يُقدم الواحد منهم وينزل عند أحد مريديه حتى تنقلب حياة البلد من النقيض إلى النقيض، تحس في الجو أن الهدنة قد أُعلنت وأن الناس قد فرغوا من أمر دنياهم إلى دين نسوه زمنًا، فحلقات الذكر لا تنقطع، والصلوات تُقام جماعة في أوقاتها.

ويلتف الفلاحون طول النهار ومعظم الليل حول الشيخ، لا تُرتكب حماقة واحدة، يصالح الخصم خصمه، ويسترد الرجل مطلقته، ويعذر الدائن مدينه، الرجال في خشوع واستعبار، تكسو وجوههم سعادة كبيرة، والنساء أكثر منهم سعادة لأنهن منهمكات في إعداد أفخر طعام لديهن. يشعرن أنهن أصبحن هن وأولادهن في حِرز منيع .

رأيتُ بعينيّ رجالاً يتخاطفون ماء وضوء الشيخ ليشربوا منه، ولا يرفع فمه من القُلّة حتى تدور على بقية الجالسين للتبرك، وما يكاد الشيخ يُعلن عزمه على الرحيل حتى يحلف رجل بالطلاق ثلاثًا إلا أقام أسبوعًا آخر، فإذا انقضى أقسم رجل آخر اليمين ذاتها، وهكذا دواليك ..

وكنت أسأل نفسي: لماذا لا تظل القرية هكذا في سلام طوال السنة، ولماذا يغلب الشر من جديد متى غادر الشيخ؟

وقد حضرت مجالس كثيرة من هؤلاء الشيوخ واستمعت إلى كلامهم، فلم يبهرني منهم علم ولا أحسست بقوة روحية خارقة، وظهر لي أن الولاية عندهم مهنة متوارثة لكسب الرزق. إنني لا أتّهمهم بسوء، وأبرئهم من بذل أي ضغط أو إرهاب للأثرياء، وإن كان أكثرهم يميل إلى البدانة

(١) في "خليها على الله". القاهرة، دار الكاتب العربي، بدون تاريخ.

لا الهزال، الهدايا تُقدم إليه عن طواعية وطيب خاطر، ولو رفض الشيخ هدية المريد لأصاب قلبه بطعنة لا يبرأ منها..".

يُجسّد طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) في واحدة من رواياته وصفًا لزيارة شيخ صوفي إلى مريده[١]. ولا يخفى أن مثل هذه الزيارة كانت موضع الترحيب، لكن نغمة الوصف بكاملها هي السخرية، وتنتهي هكذا: **"فإن هذه الزيارة الكريمة المباركة قد تملأ قلب المضيف غبطة وسرورًا وقد تُشيع ذكره والثناء عليه، وقد ترفع مكانه في الجنة درجات، ولكنها بعد هذا كله تكلفه من النفقة ما لا طاقة له به ولا قدرة له عليه".**

بالنسبة لطه حسين، على الأقل ، فإن إدراك شعبية شيوخ الصوفية بين البسطاء لا يعني الموافقة على دورهم الاجتماعي. فهو يمنح الدين مكانًا يتيح له إشباع الحاجات الانفعالية وتنظيم العلاقة بين الفرد وربه، لكنه يعترض على نحو متصل على السماح لهم بسلطة التحكم في الاهتمامات اليومية أو في الأخذ والعطاء بين الناس[٢].

وبشكل أشمل، نجد المعالجة الأدبية الأكثر إحاطة لممارسات الصوفية وزعامتها للناس عند عبد الحكيم قاسم (١٩٣٥ - ١٩٩٠) في روايته "أيام الإنسان السبعة"[٣]. فهي تؤرخ لمصائر جماعة ريفية تدين بالولاء لطريقة السيد البدوي، ويقودهم فلاح مستقيم وورع من القرية، الحاج كريم .

يحكي القصة ابن هذا الرجل، في طفولته كان فخورًا بمكانة والده عند الجماعة. وأسوأ ما قيل عنه أنه يسوق الحيوانات بقسوة (ص٨)، لكن ليس ثمة شك في إخلاصه وأمانته وكرم أخلاقه. فهو يبسط جناح الحماية على أحد أتباعه الضعفاء ليقيه من سخط زملائه الأشد ورعًا وتُقى (ص١٦)، لكنه يطرد دجالاً شر طردة كان يستغل سذاجة الفلاحين الفقراء ويحيا حياة مترفة(ص١٨) .

(١) في "شجرة البؤس". القاهرة، دار المعارف، ١٩٦١.

(٢) انظر: كاكيا "طه حسين، في النهضة الأدبية المصرية". لندن، ١٩٥٦ .

(٣) القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩ . ترجمها جوزيف بيل، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩.

رغم ذلك، حين يكبر الراوية ويتعلم تعليمًا حديثًا، يزداد انتقاده لكل ما يمثله أبوه. عند حضوره احتفالات السيد البدوي في طنطا، لا يلاحظ سوى الفحش في أماكن اللقاء، أما المؤمنون المحتشدون فيذكرونه بالديناصورات (ص٢٢٦) .ويُطرد بأمر الشيخ المتحدّر من أصلاب النبي، الذي يبارك الأطفال بالبصق في أفواههم (ص٢٢٣-٢٢٤) .

يرى أباه وقد خسر مكانته بل صار عرضة للتهديد والإساءة من صغار الموظفين في النظام الجديد (ص٢٢٩) ، لكنه لم يستطع فهم التغيرات في المجتمع ولا التعامل معها، ومن ثم تنهار صحته وتلحقه الفاقة، رغم أنه لا يزال يترأس بعض الاحتفالات، نراه يشبه "عنترة العبسي" في الملحمة الشعبية العربية، جسده الميت على حصانه في مواجهة الأعداء. ولعدة أيام تستمر الجثة المنتصبة تبث الفزع في قلوبهم، وعند جموح الحصان ينهار الهيكل الجبار إلى الأرض.

ومن بين الكتّاب العرب الكبار اليوم، نجد نجيب محفوظ (١٩١١ -) الوحيد الذي يصوّر شيوخ الصوفية بتعاطف أكبر دون أن يصفهم في بيئة ريفية أو يجعلهم يعيشون حياة عفى عليها الزمن. لم يرحم المنافقين قط، لكنه في "ثرثرة فوق النيل"[١]، يظهر عم عبده ممثلاً لكل من الإمام والقوّاد، وفي "ليالي ألف ليلة"[٢]، يعتمد الطغاة إلى حد ما على الوعاظ لتهدئة الناس.

كما يرسم في "اللص والكلاب"[٣]، صورة لا تُنسى للشيخ علي الجنيدي: ورع هادئ الروع يوحي بالجهامة والمحبة ويؤثر في الشخصية الرئيسية منذ أيامها الأولى، فقد استضافه دون تحفظ في ساعة حاجته هاربًا من العدالة. ولابد من النظر في روايته المتأخرة "ليالي ألف ليلة"

(١) أول طبعة ١٩٦٦. الأعمال الكاملة ج٧، بيروت، المكتبة العلمية الجديدة، ترجمتها فرنسيس لياردیتي بعنوان "انجراف على النيل"، نيويورك، ١٩٩٣.

(٢) القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٨٢.

(٣) القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٦٢. ترجمها تريفو ليجاسيك ود. محمد محمد بدوي، القاهرة، الجامعة الأمريكية، ١٩٨٤.

والتي هي ظاهريًا تقليد لعالم "ألف ليلة وليلة" التي لا تدّعي الواقعية.

فهي تدور أحداثها في مسرح لا تاريخ له بدلاً من أن تجري على ساحة تاريخية أو معاصرة، لكن أبطال الرواية بشر رغم ذلك تحركهم القوى الاجتماعية والفردية الأصيلة. في واحد من أحداثها (ص١٨٦ - ٢٠٢)، نجد دورًا بارزًا يلعبه صوفي آخر، هو الشيخ عبد الله البلخي، الذي يثبت أنه ورع لكنه حاسم قوي الإرادة في الوقت نفسه، إذ يرفض زواج ابنته من ابن رئيس الشرطة ذي السلطان الواسع.

يبدو أن مثل هذه التشخيصات مع بعض القصص القصيرة التي كتبها نجيب محفوظ نفسه، مثل (زعبلاوي)[1] و(زيارة)[2] حيث تعتمد على تدخلات الطبيعة الخارقة، قد اجتذبت اهتمامًا واسعًا. ويبدو في الحقيقة أن عددًا من روايات نجيب محفوظ الأخيرة تظهر فيها علامات طيبة الأمل بوجه عام، كما تظهر فيها علامات على الاهتمام بالمعرفة أو العرفان فوق العقلي، مما أغرى البعض بقراءة أعماله على ما فيها من إرادة للعودة إلى معايير الدين التقليدية.

لكن ما من حالة واحدة يصور فيها نجيب محفوظ رجل الدين باعتباره مؤثرًا في مجرى الأحداث الرئيسية، فهو يتصرف بحدود القدرة البشرية البحتة، أو حتى باعتباره يقود شخصية أخرى لحل مشاكلها بشكل فعال. والواقع أن الشيخ الجنيدي ينكر أي مسؤولية عن الشؤون الأرضية (ص١٦٢)، والنصيحة التي يسديها لمريده القديم (ص٢٢) هي أن ينجز وضوءه ويقرأ آيات قرآنية تتحدث عن العلاقة مع الله باعتبارها علاقة حب، وبطريقة التأويل يستشهد بمقولة "الحب خضوع، أطع أوامره، وأحجم عن نواهيه، وسر بما قضاه وقدّره".

بالنسبة للشيخ البلخي، فهو لم يفه بكلمة احتجاج عندما وضع عنق

---

(١) في "دنيا الله". القاهرة، دار مصر، ١٩٦٣. انظر أيضا: ساسون سوميخ "زعبلاوي: المؤلف، الموضوع، والتقنية". مجلة الأدب العربي، ١٩٧٠.

(٢) في "خمارة القط الأسود". القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٦٨.

صهره ومريده المفضل تحت السيف بتهمة ملفقة، لكنه بدلاً من ذلك حكى أمثولة محيرة عن رجل تقيّ وقع في حفرة رافضًا أن يطلب عون البشر حتى أتاه التنين فأمسك بذيله "كي ينجو من الموت للموت".

فإذا بقي هناك أي شك أن اهتمام نجيب محفوظ بالصوفية اهتمام جمالي، وليس اهتمامًا اجتماعيًا سياسيًا، فلا يمكن أن يبقى مثل هذا الشك بعد الحوار التالي الذي يتعلق برواية "اللص والكلاب" وقد أدلى به في مقابلة أخيرة [1]:

[س: هل الصوفية هي الإجابة التي يبحث عنها المجرم؟

ج: الشيخ ينبذ الحياة كما نعرفها. أما المجرم، من ناحية أخرى، فيسعى لحل مشاكله العاجلة. كل منهما يعيش في عالم مختلف. إني أعشق الصوفية كما أعشق الشعر الجميل، لكنها ليست الإجابة. لأن الصوفية سراب في صحراء. تعال واجلس، استرخ وتمتع عهدًا من الزمن. إنني أرفض أي طريق ينبذ الحياة، لكن لا يمكنني إلا أن أعشق الصوفية لأنها شيء بديع... فهي تمنح الراحة وسط المعركة.

س: لديّ أصدقاء مصريون يستشيرون شيوخ الصوفية بانتظام، بحثًا عن حلول...

ج: أتمنى لهم الخير. لكن حل مشاكلهم الحقيقي يوجد في البنك الأهلي] .

لا حاجة للمرء، بالطبع، أن يتوقع دورًا أكبر لرجال الدين في أي أدب، لكن عند ظهورهم في الكتابات العربية الحديثة، يسقطون في نسق محدود ضيق بشكل ملحوظ ، دون أن يختلف الأمر بين المسلمين والمسيحيين سوى في النادر القليل. في الماضي البعيد كانوا يلعبون دورًا بطوليًا يتناغم مع الفخر بأمجاد الإسلام السالفة، لكن ما يُحتفى به أساسًا هم أنصار المثل العليا الحديثة.

---

(١) مع شارلوت الشبراوي في "باريس ريفيو"، ١٩٩٢.

وبوضع ذلك في سياق حديث، يُظهر تناولهم روائيًا تدرّجًا من الإدانة القاسية في الكتابات المبكرة إلى تشخيص أكثر اعتدالاً في الأعمال الأدبية الحديثة الأكثر نضجًا، لكنهم على الدوام يتصفون بالرجعية في أسوأ الأحوال، وبانعدام الفعالية في أفضلها.

لعل من المزعج أكثر مما هو مريح، أن هذا الإجماع أو ما يشبه لا يعكس صدى للتوقير الذي يتلقاه رجال الدين في الأدب الشعبي، كما لا يعكس صدى لدمدمة الحركات الأصولية التي تدوي أكثر مما ينبغي على ساحة الحياة العامة. لكن هذه الصور لرجال الدين تتدرج بمؤشرات حادة على موقف عقلي قوي يتخذه المثقفون العرب المعاصرون في نشدان الحرية.

(١) لمزيد من الإيضاح، انظر لكاكيا "وجهة نظر حول الأدب العربي الحديث"، إدنبره، ١٩٩٠. كذلك سماح إدريس في "المثقف العربي والسلطة"، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٢.